الفصل العاشر

الآثار العملية للفعل فى الخبرة البرجماتية

رأينا أن الفكر الغربى لم يقتصر على العقل أو الذهن الإنســانى فى تصوره للعلاقة بين الإنســان والعالم وذلك لأن الحياة الفكرية عنده ليست وقفًا على ملكة التفكير المنظم الذى يصدر عن هذه الملكة : ملكة الذهن، بل تتعمق لتشمل تلك الملكة الأخرى التى أطلق عليها برجسون اسم الحدس وما يصدر عنها من إدراك مباشر للحقيقة وتتسع لتشمل دائرة الشعور أو الوعى ولتضم كذلك تلك التجربة المعاشة التى يتحدث عنها الفلاسفة الوجوديون.

كل هــذا التطور يشــهده الفكر الغربى فــى أوربا. أما فى أمريكا فقــد اتجهت الحياة الفكرية وجهة أخرى تتفق مع اتجاهات الناس فى هذا العالم الجديد وهى تلك الاتجاهات العمليــة التــى يتميز بها بصفة خاصة رجال الأعمال الذين يهمهم فى المحل الأول تحقيق النجاح فى الحياة.

وعلى هذا النحو ظهر فى أمريكا مفهوم جديد للتجربة هو التجربة أو الخبرة البرجماتية. وفيه أصبحت التجربة أو الخبرة مقترنة بالفعل أو بتأدية سلوك معين، وقيمة الخبرة تقاس بنجاح الخطوات التى يتخذها الإنســان لتحقيق المعنى فــى دنيا الواقع العملى. فالخبرة هنا ضرب من الفعل. إنها ليســت التجربــة المعملية التى تجرى فى المختبر ولا التجربة المعقولة التى رأيناها عند كانط ولا التجربة المعاشة التى رأيناها عند الوجوديين. وهى فوق هذا وذاك ليست منهجًا من مناهج المعرفة. إنها تجربة تقوم أولاً وأخيرًا على الفعل أو على النشاط العملى الذى يترجم الفكرة ويعبر تعبيرًا واقعيًا عن نجاحها أو فشلها.

فى عام ١٨٧٨م نشــر تشــارلس بيرس (الذى يعتبر المؤسس للفلسفة البرجماتية) بحثًا عنوانــه : «كيف نجعــل أفكارنا واضحة؟» قال فيه إننا لا نعرف على وجه التحقيق ما هى الكهرباء فى حد ذاتها، أى إننا لا نملك ماهية عقلية للكهرباء، وكل معرفتنا بها محصورة فيما تؤديه لنا الكهرباء أو ما تحققه من أغراض عملية. ومعنى هذا أن معنى الكهرباء يتحدد بالنظر إلى آثاره العملية التى نلمسها فى تجربتنا اليومية. والأمر على هذا فيما يتعلق بمعظم الأقمار، فدقة هذا الجرس تعنى أن المحاضرة قد بدأت ولكن دقته الثانية تعنى أن المحاضرة قد

انتهت. وقد ترتب على الدقة الأولى سلوك معين هو دخول الطلبة والأستاذ قاعة المحاضرات، وترتب على الدقة الثانية سلوك آخر هو خروجهم. والدقة هى فى الحالتين. فالفكرة لها «مجال فعل» خاص بها. ومعناها يتحدد من خلال هذا المجال وبالنظر إلى النتائج العملية المترتبة عليها.

وعلى هذا النحو يتغير معنى العقل. فالعقل ليس شيئًا مفروضًا على الخبرة من علٍ، وليس ملكة منفصلة عن الخبرة تفضى بنا إلى عالم سام من الحقائق الكلية أو عالم من المقولات والإطارات فى الخبرة ويقترن بها ليخلصنا من شوائبها ومن عبوديتنا لبعض العادات البالية التى تعوق طريق تقدمنا.

والفكرة التى تتحقق أو تمتد فى أفعال سلوكية هى التى تحوز موافقتنا وتغدو جزءًا من عقيدتنا أو من معتقداتنا. فليس كل ما يرد على ذهننا من خواطر يصبح معتقدًا لنا، إذ إن أفكارنا التى تبلغ هذه المرتبة هى فقط تلك الأفكار التى نراها تتحقق أمامنا على صورة أفعال تحفر آثارها فى نفوسنا وينعقد. سلوكنا عليها فتصبح معتقدًا لا نملك عنه حولا.

وقد أراد بيرس منذ البداية أن لا يكون المعتقد معتقدًا فرديًا بل جماعيًّا وذلك لأن المعتقد الحق هو الذى يعتقده مجموعة من الناس أو هو الذى يتحقق فى إرادة أكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع. وهكذا فإن المعتقد الصحيح هو الذى يمكن تعميمه على عدد كبير من الناس. أما المعتقد الذى أؤمن به أنا وحدى فلا يستحق شرف تسميته بالمعتقد، لأن ماهية الاعتقاد قائمة فى تحقيق السعادة لأكبر عدد من أفراد المجتمع.

وقد توسع كل من وليم جيمس وجون ديوى فى أفكار بيرس وأضافا إلى الفلسفة البرجماتية آفاقًا جديدة. فذهب جيمس مثلا إلى أن الحقيقة ليست إلا ما يقودنا إلى النجاح فى الحياة. وقال إن المعتقدات الصحيحة هى وحدها التى تنتهى بنا إلى تحقيق أغراضنا الفعلية. وذلك لأن الحق لا يوجد أبدًا منفصلا عن الفعل أو السلوك، باعتبار أننا نفكر لنعيش وليس هناك حقيقة مطلقة. ولا وجود لفكرة حقيقة فى ذاتها. إذ إن الفكرة أو المعتقد فى دنيا الواقع، ويعبر بالفعل عن قيمته المنصرفة فورًا. ويلاحظ جيمس أن فكرتنا عن النار لا تحرق، أو على حد قوله - النار العقلية لا توقد خشبًا والماء العقلى عاجزا عن أن يطفئ نارًا. ولهذا فإنه يهاجم صورنا الذهنية عن الأشياء المحسوسة ويقول إنها مهما بلغت من الوضوح والقوة فإنها لا يمكن أن تعدل الأشياء نفسها.

من هذا نرى أن الفلاسفة البرجماتيين يتفقون مع الحسيين أو التجريبيين الذين يوجهون هم أيضًا النقد ضد الصور الذهنية ويقولون عن هذه الأخيرة إنها إدراكات وانطباعات باهتة ضعيفـة، أو إنها ليسـت إلا هذه الإدراكات والانطباعـات بعد أن يكون قد ضعف تأثيرها علينا، ولكن البرجماتيين يختلفون عن الحسـيين فـي أنهم فهموا من التجربة معنى أكثر اتساعًا من معناها عند الحسـيين. فالفلاسفة الحسـيون يعدلون على التجربة أنها الحقل الذى يشمل جميع الإدراكات والانطباعات الحسية. أما البرجماتيون فالإحساسات عندهم - كما يقول جونديوى - ليسـت أجزاء من أية معرفة كانت ناقصة أو كاملة ولكنها مثيرة ومنبهـات وأنـواع من التحدى للقيام ببحث أو بتحقيق ينتهيـان بالمعرفة. وهذا معناه أن الإحساسـات ليست طرقًا من طرق معرفة الأشـياء تختلف قوةً وضعفًا وتزيد فى قيمتها أو تقل عن الصور الذهنية وطريقة التفكير البرهانى، وإنما هى منبهات للتفكير أو للسلوك.

وبوسـعنا أن نقول إن عالم الخبرة المحسوسـة يشتمل عند البرجماتيين على دائرتين: دائرة الآثار الحسـية ودائرة الأفعال أو السـلوك. وكلاهما يقع فى الخارج، ويمثلان واقعًا ملموسًا، لكن دائرة الأفعال الإنسانية تعبر عن ردود أفعال الناس واستجاباتهم تجاه الأشياء المحسوسة التى هى منبهاتهم أو تعبر عن وظائف هذه الأشياء فى حياتهم. ولهذا فإن دائرة الخبرة لا تشـتمل فقط عند البرجماتيين على انطباعات حسـية متفرقة بل تضم مجموعة من العلاقات بين الإنسـان والأشياء، ومجموعة أخرى من العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع بعضهم مع البعض الآخر من حيث إنهم يتداولون تلك الأشياء بالعمال أو الصناع الذيـن صنعوها... وهكذا وكل هذه الروابط أو العلاقات تنشـأ فى حقل التجربة أو الخبرة وليسـت من وضـع العقل. ولكن المهـم أن نلاحظ أن البرجماتية قـد أضافت الكثير إلى معنى التجربة ووسـعت دائرتها. ولهذا كله فإن وليم جيمس يقدم فلسفته على أنها فلسفة التجريبية الأصيلة أو الراسخة، باعتبار أن التجريبية التى نجدها عند الفلاسفة الحسيين ليست إلا تجريبية سطحية ومحصورة فى نطاق الانطباعات الحسية فقط.

وفضلاً عن هذا فإن البرجماتية تختلف عن التجريبية التقليدية من ناحية أن هذه الأخيرة كانت قد ذهبت إلى أن الحقيقة معطاة أمامنا وأن دور الإنسـان محصور فقط فى تسـجيلها مـا دامت قائمة فى الوقائع الخارجية وفى الروابط القائمة بينها. أما البرجماتية فقد رفضت هذا التصور الاسـتاتيكى للحقيقة وقدمت بدلًا منه تصورا ديناميكيًّا أصبحت فيه المعرفة أو

الحقيقة مرتبطة ارتباطًا وظيفيًا بالفعل وأصبحت كذلك حقيقة متحركة تتصل بنشاط الإنسان وتتوقف على ما يستطيع أن يحققه من منفعة من ورائه. الحقيقة أو المعرفة فى الفلسفة البرجماتية لم تعد قائمة فى الأشياء، وموجودة فى الخارج بل أصبحت تقبل على الأشياء من خلال النشاط البشرى والسلوك الذى يقوم به الإنسان فى الاستجابة لها. وهذا معنى آخر لما يقصده وليم جيمس من وراء قوله بأن فلسفته تمثل التجريبية الأصيلة.

ومن ناحية أخرى فإن التجريبية الأصيلة عند وليم جيمس والفلاسفة البرجماتيين بوجه عام تتعارض مع المثالية الهيجلية من ناحية أن هيجل جعل موضوع المعرفة هو التصورات العقلية والروابط القائمة بينها. وهذه التصورات تمثل عند هيجل لب الواقع أو روحه. أما البرجماتيون فقد رأوا أن التصور لا يمس لب الواقع أو روحه فى شىء لأنه إذا كان هذا صحيحًا فما هو المعيار الذى يجعلنا نفضل تصورًا على آخر ونصفه بأنه صحيح وبأن الآخر فاسد؟ إن العبرة هنا ليست فى التصور نفسه بقدر ما هى فى الأثر الفعلى الذى يحدثه التصور فى حياتنا وفى الأفعال التى نقوم بها استجابة له. فصحة المعتقد مرتبطة إذن بالفعل الذى تتحقق به منفعته. وعلى هذا فإن الفعل والمنفعة هما الأصل لا التصور العقلى. وإذا كانت الصورة العقلية التى لدينا عن موضوع ما أو إذا كان التصور العقلى الخاص بهذا الموضوع ليس صورة جوفاء أو ليس تصورًا فارغًا فإنها ستنحل فى نهاية الأمر إلى مجموعة من الآثار العملية سواء كانت آثارًا قريبة مباشرة أو بعيدة غير مباشرة فالتصور الصحيح به أدواته أو مقولاته العملية التى ليست فى حقيقتها إلا مسارات تجاربنا التى نسلكها بإزائه. ففى هذا الانتقال المستمر من تجربة سلوكية إلى أخرى ترتبط جهودنا فى توضيح معنى هذا التصور. والمهم فى جميع الأحوال أن لا نفهم التصور على أنه فكرة مجردة لها وجودها قبل الواقع ومستقلة عنه. ولو فعلنا ذلك – والفلاسفة العقليون هم الذين يفعلون ذلك – لكنا أشبه ببعض رجال الاقتصاد الذين يخطئون فيزعمون أن أوراق النقد لها قيمة فى ذاتها قبل التعامل بها. وعلينا أن نلاحظ أن تأثيرنا فى الأشياء لا يقتصر فقط على ردود الأفعال السلوكية التى توحى إلينا بها هذه الأشياء بل مصالحه، فيدخل الشىء الواحد فى نسق معين من المصالح والأغراض فيكتسب بهذا معنى ما، ثم يقوم هو نفسه بإدخال نفس هذا الشىء فى نسق آخر من مصالحه فيكتسب معنى جديدًا قد يكون مختلفًا أو متعارضًا مع معناه فى النسق الأول، وقد يكون مكملًا له. ومعنى هذا أنه لا وجود للحقيقة، بل الموجود هو الحقائق أو مجموعة من الحقائق.

الإنســان إذن هو الذى يهب الأشياء حقيقتها وفقًا لتجربته البرجماتية معها. ولما كان الإنسان لا يقوم بتجربة برجماتية واحدة مع الأشياء، بل بتجارب متعددة، فلن نكون هنا بصــدد تجربة واحدة بل بصدد تجــارب متكثرة متعددة. والعالم كله عالم متكثر لا يخضع لمبــدأ واحد، ولا يمثل تجربة واحدة. وهذا معنى آخر للتجريبية الأصيلة كما حددها وليم جيمس. إن هذه التجريبية الأصيلة تقدم لنا عالمًا كثريًا أشــبه بالجمهورية الفيدرالية منه إلى الإمبراطورية أو الملكية.

وقــدم جــون ديوى صورة للبرجماتية عرفت باســم مذهب الذرئــع أو الذرائعية. وكان ديوى متأثرًا فى معظم ما كتبه بفلسفة دارون فى التطور. فهو يرى أن حياة الإنسان ليست فــى جوهرهــا إلا محاولة متصلة مــن جانبه لتحقيق التوافق مع البيئــة المحيطة. وإذا لم يســتطع تحقيق هذا التوافق فإن مصيره حتمًا إلى الموت. لكن ما ســبيل الإنسان لتحقيق هذا التوافق؟ إنها أفكاره. فأفكار الإنســان ليســت إلا الوسائل أو الذرائع التى يتلمس بها طريقه إلى تحقيق هذا التوافق. والتجربة الســلوكية للإنسان فى الحياة تكون ناجحة بقدر اهتداء الإنسان إلى أفكار تمثل محاور ارتكاز فى البيئة وذرائع تعبد له الطريق إلى السيطرة عليها. ولهذا فإن الأفكار التى يتحدث عنها ديوى ليســت أفكارًا مجردة وليســت أحكامًا منطقيــة نظرية كتلك التى اعتــاد المناطقة أن يقدموها لنا ويربطون فيها بين موضوع عقلى ومحمول لهما فى الواقع بل هى بالأحرى تعبر عن أحكام تنبع من الواقع ويكون موضوعها ومحمولهــا معبرين عن موقف تجريبى معين. فالفيلســوف البرجماتى الذى يصدر أحكاما عقلية شبيه بالقاضى الذى لا يصدر حكمه إلا بعد أن يكون قد اطلع على «معاينة النيابة» واســتمع إلى أقوال الشــهود وعاش جو الجريمة أو الحادثة. ومن ثم لا يجىء الحكم الذى يصدره بعد هذا إلا معبرا عن الوقائع التى عاينها. أما الأحكام العقلية النظرية فليست فى نظر ديوى إلا خطوة انتقالية تمهيدية للأحكام البرجماتية الواقعية. وما أشبه هذه الأحكام النظريــة بالفروض العلمية التى يلجأ إليها العالــم التجريبى والتى لا تصبح قانونًا إلا بعد التحقق من صحتها فى المختبر.

ولهذا كان الإصلاح الذى قدمه ديوى لعلم المنطق ولنظرية المعرفة قائمًا على أساس البدء من الذكاء لا من العقل أو الذهن أو الذات العارفة. إذ إن هذه البداية الأخيرة هى التى أغرقت المنطق ونظرية المعرفة فى الميتافيزيقا وفى التوجهات المثالية التى أثقلت

حركتها. ودخل هذان العلمان بهما ما يطلق عليه ديوى اسم «حرب الفلسفات». وبهذا المعنى أيضًا كانت البرجماتية عند ديوى وعند وليم جيمس من قبله تجريبية أصيلة أو أصلية.

ويعرف جون ديوى الفلسفة بأنها رؤية تهدف إلى تحرير العقول من الأهواء وتخفيف حدة التوتر فى الحياة الاجتماعية السائد فى عصرهم. ومعنى هذا أن ديوى يوسع من معنى البيئة فيفهم منها كل ما يدور حول الإنسان من ظروف مادية ومعتقدات ومعايير وآراء اخلاقية، وكان واضحا فى أنه أراد أن يؤسس الأخلاق على نوعين من الدراسات السيكولوجية من ناحية، والدراسات الاجتماعية من ناحية ثانية. وكل منهما غوص فى البيئة بطريقة أو أخرى، ومحاولة لتضييق الثغرة القائمة بين العقل النظرى والعقل العملى أو بين أحكام الواقع وأحكام القيمة. فالتجربة الأخلاقية فى رأى جون ديوى بحاجة إلى ضوابط كثيرة نتلقاها من عالم الأشياء والوقائع والظاهرات المادية والفسيولوجية والبشرية أو الاجتماعية وهذه الضوابط الأداتية أو الذرائعية من شأنها أن تسهم فى غرس المعايير الأخلاقية فى النفوس البشرية على نحو جذرى.

***